

أضواء البيان

@ 512 @ خاشعة عاملة ناصبة يومئذٍ تصلى ناراً حامية ، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل ، فالأصل إقرار الكلام على نظمته وترتيبه لا تغيير ترتيبه ، والتقديم والتأخير ، إنما يكون مع قرينة . .

والثاني : أن ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة بعد ذلك { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهِمْ رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ } ، أي في ذلك اليوم ، وهو يوم الآخرة : فالواجب تناظر القسمين أي في الطرف . .
الثالث : أن نظير هذين القسمين ما ذكر في موضع آخر في قوله : { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَى رَبِّهِمْ نَاطِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ لَهَا فَوَاقِرَةٌ * } ، وفي موضع آخر في قوله : { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَائِقَةٌ * غَابِرَةٌ * تَرهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ } ، وهذا كله وصف للوجوه في الآخرة . .

الرابع : أن المراد بالوجوه أصحابها لأن الغالب في القرآن وصف الوجوه بالعلامة كقوله : { سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ } ، وقوله : { فَلَا عَرَفَ فَتَهُم بِسَيِّمَاهُمْ } ، وهذا الوجه لم تتضح دلالته على المقصود . .

الخامس : أن قوله : خاشعة عاملة ناصبة ، لو جعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم ، فإن هذا إلى المدح أقرب ، وغايته أنه وصف مشترك بين عباده المؤمنين وعباده الكافرين ، والذم لا يكون بالوصف المشترك ولو أريد المختص ، لقليل : خاشعة للأوثان مثلاً ، عاملة لغير الله ، ناصبة في طاعة الشيطان ، وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقاً ولا وعيد عليه ، فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن ، وهذا الوجه من أقواها في المعنى وأوضحها دلالة . .

وقد يشهد له أن هؤلاء قد يكون منهم العوام المغرورون بغيرهم ، ويندمون غاية الندم يوم القيامة على اتباعهم إياهم ، كما في قوله تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبِّ بَشِّرْنَا أَلَّا نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ أَضَلَّ لَنَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَّ مَا تَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْإِلَّهِ سَفَلِينَ } . .

السادس : وهو مهم أيضاً ، أنه لو جعل لهم في الدنيا لكان خاصاً ببعض الكفار دون